مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: وصف المدينة المنورة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (14م) من خلال رحلة البلوي
اسم الكاتب: نواف عبدالعزيز الجحمة
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/8912
تاريخ الاسترداد: 2026/05/13 03:31 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 13 ، العدد 2

ربيع الأول 1437 هـ / ديسمبر 2016 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

□□□□□□□ □□□□.indd 1 2/8/17 10:05 AM

وصف المدينة المنورة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (14م) من خلال رحلة البَلوي

نواف عبد العزيز الجحمة

كلية التربية الأساسية - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب

الكويت - الكويت

تاريخ الاستلام 2015-12-27 **تاريخ القبول 2016-04-26**

ملخص البحث:

كانت المدينة المنورة نقطة جذب لمخيلة الرحالين الأندلسيين والمغاربة، الذين مهما اختلف تصويرهم لها أو تنوعَ، فإنه يصب في بوتقة صورة تمثيلية طافحة بالمحبة والتقدير والإعجاب إلى حد المجاورة والتقديس. ولعل هذا ما يفسر القواسم المشتركة بين الرحالين الذين ارتحلوا إلى المدينة المنورة، إلى الحد الذي بدت فيه – مع مراعاة اختلاف التجربة الفردية – هذه النصوص وكأنها مروية بالسند أو الإسناد المتواتر، علما أن كل نص رحلي كان نسيجا وحده وجدانا ومعجما وسردا ووصفا.

ومن بين الرحلات المدونة عن رحلة حجية من الأندلس إلى بلاد الحجاز رحلة أبي البقاء البلوي التي قام بها في سنة (737هـ/ 1336م)، وهي مطبوعة في كتابين. وبتحقيق وتعليق الأستاذ الحسن السائح عن مطبعة النشر المغربية بالمحمدية تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة.

- ماذا كتب البلوي في رحلته هذه بصورة مجملة؟
- وما موقع المدينة المنورة من مجمل ما كتب، أو بالأحرى ما هي الصورة التي ترسمها هذه الرحلة للمدينة المنورة؟

هذا ما سأحاول الإجابة عنه من خلال قراءة هذه الرحلة وتقديمها في هذا العرض الذي سيتطرق للعناصر الآتية:

1. تقديم الرحلة.
2. المدينة المنورة ضمن الرحلة.
3. استنتاجات وخلاصات.

الكلمات الدالة: رحلة أبي البقاء البلوي، المدينة المنورة.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 119 2/8/17 10:06 AM

مقدمة:

كانت المدينة المنورة نقطة جذب لخيال الرحالين الأندلسيين والمغاربة، الذين مهما اختلف تصويرهم لها وتنوع، فإنه يصب في بوتقة صورة تمثيلية طافحة بالمحبة والتقدير والإعجاب إلى حد المجاورة والتقديس. ولعل هذا ما يفسر القواسم المشتركة بين الرحالة الذين ارتحلوا على المدينة المنورة، إلى الحد الذي بدت فيه – مع مراعاة اختلاف التجربة الفردية – هذه النصوص وكأنها مروية بالسند أو الإسناد المتواتر، علما أن كل نص رحلي كان نسيجا وحده، ووجدانا ومعجما وسردا ووصفا.

ومن بين الرحلات المدونة عن رحلة حجية من الأندلس إلى بلاد الحجاز رحلة أبي البقاء البلوي التي قام بها في سنة (737هـ/ 1336م)،وهي رحلة-في نظري- جديرة بالدراسة، لما تضمنته من إفادات علمية، ومعلومات تاريخية مفيدة، ونصوص أدبية نادرة ،ولتحقيق هذا الغرض صنفت عناصر هذا العرض في ثلاثة محاور رئيسة:

1. تقديم للرحلة.
2. المدينة المنورة ضمن الرحلة.
3. استنتاجات وخلاصات.

1- تقديم للرحلة:

أ - صاحب الرحلة: (713 /780هـ.) (1313 / 1387م.)

هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي من أهل قنتورية من حصون وادي المنصورة ولقب بأبي البقاء(انظر البلوي د.ت: (1)616 وابن القاضي 1971: (1)262 والمقري 1968: (2)532 وابن الخطيب 1969: (1)500). تحدث ابن الخطيب (1969:(1)340) عن البلوي في رحلته المسماة بخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف التي كتبها في محرم سنة 748هـ /1347م. فقال عنه: «هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة كثير التواضع منحط في ذمة التخلق نابه الهيئة، حسن الأخلاق جميل العشرة، محبب في الأدب». أما مكان مولده فهو قنتورية، وقد رجح محقق رحلته أنه قد يكون 713هـ/ 1313م، لأنه عندما رحل إلى المشرق سنة 736هـ كان شاباً في مقتبل العمر، وقد جاوز سن الطلب إلى سن الاتصال بالعلماء والرواية عنهم (البلوي د.ت:(1)25). أما وفاته فمن المحقق أنه توفي قبل 780هـ؛ لأن ابن الخطيب ذكره في الريحانة التي ألفت سنة 780هـ وترحم عليه (الزركلي 1986:(1)67).

وينتسب البلوي إلى أسرة علمية فنشأ في وسط علمي مع تربية صالحة فأخذ عن والده

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 120 2/8/17 10:06 AM

بقنتورية ثم رحل إلى غرناطة ودرس بها وكان من أصدقائه بها الرحالة ابن الحاج النميري الذي أصبح من كتاب الدولة المرينية، ثم رحل إلى المغرب الأقصى حيث أخذ من علماء فاس العلم ومن ثم عاد إلى قنتورية، وبعدها رحل إلى المشرق للحج والاستزادة من العلم واستجازة للعلماء الكبار، وبعد عودته إلى الأندلس أصبح من رجال الفقه والأدب فولي القضاء بمدينة قنتورية، ثم انتقل إلى القضاء ببرشانة التي أتم فيها كتابة الرحلة، كما أثقلته موهبته الأدبية ليكون كاتبًا أيضاً، فاستكتبه السلطان أبويحيى بن أبي زكرياء الحفصي بتونس سنة 740هـ، وفي عهده زخرت تونس بالكتاب الكبار كابن خلدون، والآبلي، كما احترف البلوي التعليم فكان مدرساً بالإسكندرية أثناء إقامته بمصر (البلوي د.ت:(1)26-27-43).

ب ـ التعريف بالرحلة:

لم تكن رحلة البلوي إلى بلاد الحجاز هي الرحلة الفريدة، بل كانت هناك رحلات أخرى، وذلك لأن البلوي كان شغوفاً بالرحلة والأسفار، ففي الرحلة الأولى رحل إلى مدينة فاس للدراسة وتلقى العلم، وقد ذكر في فهرسته بعض تفاصيل عن هذه الرحلة، فهي لا تشتمل على تراجم للعلماء الذين أخذ عنهم بفاس، وكانت الرحلة متداولة في عصر ابن القاضي الذي ذكر شيوخ البلوي بفاس (ابن القاضي رقم 1242: 517). أما الرحلة الثانية فكانت إلى بلاد المشرق والتي دونت في كتابه المعروف (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق)، أما الرحلة الثالثة فكانت تنقلاته في شرق الأندلس وفي غرناطة والمرية وغيرها من البلدان.

والرحلة الحجازية (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق): هي رحلته التي قام بها من بلدة قنتورية بقصد حج بيت الله الحرام وطلب العلم، وكانت بداية خروجه ضحى يوم السبت الثامن عشر لصفر من عام 736هـ/1335م من بلدة قنتورية، وعاد إليها يوم الاثنين عصراً في بداية ذي الحجة 740هـ/ 1339م فمدة رحلته خمسة أعوام إلا شهرين وثمانية عشر يوماً، وفرغ من تأليف رحلته (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) في آخر يوم شهر ربيع الأول سنة 768هـ /1367 وفي بداية تقييده لها بين منهجه الذي اتبعه. إذ يقول: «هذا تقييد، أطلعه عون من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الرحلة المشرقية. وألممت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء والفضلاء الذي يطئون ذيول البلاغة، ويجرون فضول البراعة، ولهم كلام يتألق فيه شعاع الشرق، ويترقرق عليه صفاء العقل، وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم، واختيار طرف من أناشيدهم. ثم يقول: «دعوت الله أن ينفع به كل من يلتمس النفع في المطالعة أو الكتابة» (البلوي د.ت:(1) 142-143).

وتعتبر رحلة البلوي ذات قيمة كبرى سواء من الوجهة التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية أو العلمية، فقد سجل مذكراته بدقة دون الاعتماد على الذاكرة، وقد أتم له الالتقاء بكبار

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 121 2/8/17 10:06 AM

العلماء في أهم حواضر بلاد المشرق، فهو أول من حمل إلى الأندلس والمغرب ديوان ابن نباتة، ومجموعة أشعار شهاب الدين بن أبي الثناء الحلبي، والعديد من الكتب. وفضلاً عن هذا فقد اتصل البلوي بالأمراء والسلاطين الذين كان لهم دور في توحيد العالم الإسلامي ومواجهة الخطر الصليبي مثل الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون الذي حكم الشام ومصر، فقد عرف في عهده الأمن والاستقرار والنبوغ العلمي(الحجي 1984: 19-30)، وكذلك السلطان ابن الحجاج يوسف بن الوليد بن نصر الذي حكم الأندلس (ابن الخطيب 1974:18(4) وابن بطوطة 1997:221(4))، وقد شغل البلوي في عهده القضاء، وكذلك السلطان أبوبكر الحفصي حاكم تونس، وقد شغل فيها كاتباً في بلاطه، ويعتبر هذا العصر من ألمع العصور الإسلامية، شاهدت فيه الأندلس في عهد بني نصر آخر مجدها، وعرف المغرب في عهد بني مرين عهوداً ثقافية يانعة، كما عرفت القاهرة والشام في عهد الناصر محمد بن قلاوون أمناً وتقدماً علمياً وأدبياً (البلوي د.ت:47(1)).

وقد أثرت هذه الرحلة الطويلة في سلوكه الشخصي فتشبه بالمشارقة كما يذكر عنه ابن الخطيب (1969:501(1)) في الإحاطة «شهرته النزعة الحجازية فلبس من خشن الحجازية، وأرخى من البياض طيلساناً وتشبه بالمشارقة شكلاً ولساناً، وصبغ لحيته بالحناء والكتم ولاث عمامته واختتم»، والواقع أن البلوي كان شخصية محبوبة كما يظهر من خلال رحلته التي لا تظهر ميزة أسلوبه واطلاعه الواسع بقدر ما تعبر عنه نبله وجاذبيته على النفاذ إلى قلوب العلماء والأدباء حيث لا يكاد يمكث قليلاً في أية بلدة حتى يتعرف على رجالها في سهولة ويسر (البلوي د.ت:44(1)).

هذا وقد أوضح محقق الرحلة أن البلوي كتب رحلته أولاً وتناقلها الناس عنه، ثم بدا له أن يكتبها مرة ثانية وعرضها على أصدقائه من العلماء فقرضوها، وهي التي احتفظ بها حفيده ونشرها من جديد تلافياً لكل الناس، وهذا هو سبب ما يظهر من عدم الاتفاق في النسخ التي وجدت (البلوي د.ت:46-54(1)). إن المصدر الحق لرحلة البلوي هي تجربته الشخصية ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار والاتصال بالعلماء مباشرة للرواية عنهم، والبلوي لا يعتمد في ذكره المدن التي زارها على وصف ما جاء في كتب الرحالة والمؤرخين الذين سبقوه وإنما يعتمد على مشاهدته بنفسه، وبذلك فإن قيمة الرحلة تبدو في طراوة كتابتها وحيوية كاتبها الذي لم ينقل في هذا الموضوع عمن سبقه وإنما تحدث عن المشاهد الحية كما رآها.

مسار الرحلة ومحطاتها الأساسية:

استغرقت رحلة البلوي في مجموعها أربعة أعوام وتسعة أشهر واثني عشر يوماً - أي سبعة وخمسين شهراً (57)، واثني عشر يوماً (12) موزعة كما يأتي:

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 122 2/8/17 10:06 AM

ـ رحلة الذهاب للوصول إلى مكة المكرمة: تبدأ الرحلة بمقدمة، وبعدها خروج البلوي من قنتورية إلى المرية يوم الأحد جمادى الأولى سنة 735هـ، فوصل هنين وتلمسان والجزائر فبجاية فقسطنطينة فالعناب، فبونة ثم تونس التي غادرها في 17 ربيع الثاني سنة 737هـ إلى قوسرة، مالطة، قبرص، الإسكندرية فالقاهرة التي دخلها في 13 رجب سنة 737هـ في عهد الناصر محمد بن قلاوون ـ وقد خرج البلوي من القاهرة يوم الاثنين 28 رجب سنة 737هـ إلى غزة فمدينة الخليل، فبيت المقدس، فالكرك، فتبوك، فوادي القرى إلى (المدينة المنورة) ثم خرج البلوي من المدينة في 23 ذي القعدة إلى (ذي الحليفة) فوادي الصفراء فرابغ، فخليص، ثم مرّ إلى (مكة المكرمة) فدخلها في 5 ذي الحجة سنة 737هـ (البلوي د.ت:(1)53).

ـ رحلة العودة مروراً بالقدس الشريف: قفل راجعاً إلى وادي العقيق فالمدينة المنورة في 23 ذي الحجة عام 737هـ، فالينبوع، فعقبة إيليه، فوصل إليها في 16 محرم738هـ، ثم واصل السير إلى القدس، فالرملة، وعسقلان، فمصر، ففوة، فالإسكندرية، فالغماري، ثم رجع إلى الإسكندرية وغادرها في أول شوال سنة 738هـ، ماراً بطبرق وتونس سنة 740هـ وباجة والعناب وقسطنطينة وبجاية، وجبل الزاب، والجزائر، وتلمسان، وهنين، حيث ركب منها قرقورة إلى المرية ومنها إلى قنتورية(البلوي د.ت:(1)53).

ملاحظات عامة:

- شغل في تونس وظيفة سلطانية سامية، حيث استكتبه أبويحيى أبوبكر ابن زكرياء الحفصي.
- قاسى البلوى كثيراً من الشدائد والمحن، منها محنته عند عودته إلى المغرب بعد خروجه إلى الإسكندرية حيث تآمر عليه صاحب الركب، ففر تاركاً البلوي وأخاه في العراء فتكبدا شقاء مريراً وجوعاً مؤلماً حتى رجعا إلى الإسكندرية. ومنها محنته بعد خروجه من بجاية حيث اعترض قافلتهم عربان جبل الزاب فوقعت معركة انهزم فيها أعداؤهم وسلم الله تعالى أبا البقاء.
- إشارته إلى العلاقات الدبلوماسية الحسنة بين مصر والمغرب والأندلس في عهد الناصر محمد بن قلاوون، كما يظهر ذلك من رسالة أوردها المقري من إنشاء الكاتب ابن الخطيب موجهة من الغني بالله إلى الناصر محمد بن قلاوون (انظر البلوي د.ت:(1)54).
- ينتقد البلوي ديوان الجمرك السكندري لتفتيش الصادر والوارد وقد سبقه إلى ذلك من الرحالة ابن جبير(د.ت:12-13) الذي رفع قصيدة في الموضوع إلى صلاح الدين الأيوبي، وانتقده كذلك أبوعبدالله محمد بن رشيد، والعبدري (1968: 85-86)، مما

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 123 2/8/17 10:06 AM

يدل على الجور الجبائي الذي كان يعانيه الحجاج المغاربة والأندلسيون على يد الجمركيين من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري(12- 14م) (انظر الجحمه 2003: 47-68).

أما عن مزايا الرحلة فيمكن حصرها فيما يأتي:

تعتبر رحلة البلوي رحلة أدبية لما في أسلوبها من نثر محكم وتعبير بليغ وعبارات منتقاة، وقد استوفى بها شروط الرحلات المغربية والأندلسية من الاهتمام بذكر القضايا الفكرية المثارة في وقته، والترجمة لأعلام العلماء الذين اتصل بهم، وأخذ عنهم، من الكتب العلمية والدواوين الشعرية الذائعة في عصره، فغدت رحلته نموذجاً يحتذى به في القرن الثامن الهجري/ 14م؛ لذلك فلا بدع أن نرى رحلة البلوي مصدراً مهمًا عند علماء التراجم وكتاب الرحلات وأن نراهم يذكرونها وينقلون عنها في ثقة لمؤلفها.

ويمتاز البلوي بأمانة الرواية، فهو حريص على ذكر الرواة المشهورين بالصدق وبأمانتهم العلمية، لذلك يسلسل السند حتى يرجع به إلى الأصل، ويعتمد على فن الرواية في أخذه للحديث وأخذه لفن القراءات وروايته للشعر، ويذكر البلوي (د.ت:(1) 103) أن سنده في الحديث قوي جداً، فهو يروي موطأ مالك برواية أبي عبدالله عبد السلام، وهي أصح الرواية ولا يوجد مثل سندها في المغرب كما ذكر في رحلته، وكما أن البلوي على درجة كبيرة برواية الشعر العربي وحفظه وبالأخص الشعر الأندلسي، وكتابه مليء بمحفوظاته في هذا الباب، وقد روى لنفسه كثيراً من القصائد والمقطوعات، فمنها ما ارتجله بالمدينة المنورة شوقاً وحنيناً لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (انظر البلوي د.ت:(1) 283-284).

هذا وقد اهتم أيضاً بالوصف الجغرافي للمدن والقرى التي مر عليها، وإن كان يؤخذ عليه ذكر عابر ينقصه الوصف الدقيق، فهو لا يهتم بالمشاهد المألوفة كجغرافي أو العوائد والارتسامات كرحالة اجتماعي. كما أشار إلى الأحوال الأمنية والسياسية والاجتماعية بصورة مقتضبة، واعتنى بتسجيل النقوش التأسيسية التي شاهدها على الآثار المقدسة في الحرمين الشريفين مع وصفه لهما، وسجل أسماء المدارس بمكة المكرمة والمدينة المنورة والمكتبات الموجودة بهما. واهتم بذكر النواحي التاريخية القديمة عن المساجد والآثار المقدسة ووصف مكة المكرمة والمدينة المنورة وأسوارهما وذكر أسماء أحياء مكة المكرمة وجبالها.

أما بعد عصر البلوي فقد ظلت هذه الرحلة حية تناقلتها الخزائن وتهافت عليها الوراقون، لذلك تعددت نسخها، وجودة خطها، وقلما خلت منها خزانة أديب من أدباء عصره، فقد ذكر أحمد بابا التمبكتي(1351: 99) إنه وقف عليها ووصفها إنها رحلة في سفر وفيها

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 124 2/8/17 10:06 AM

فوائد ونقل عنها عدة تراجم وذكر في آخر الكتاب أنه اعتمد عليها، وينقل علي بن محمد بن علي الجزولي التمجرورتي (ت 1003هـ) كثيراً من فصول رحلة البلوي في رحلته: «النفحة المسكية في السفارة التركية»، وفي ذلك تزكية لقيمة كتاب «رحلة البلوي» من الوجهة الأدبية (البلوي د.ت:(1) 24-110).

ج ـ نقد الرحلة:

الجدير بالذكر أن البلوي قد نقل الكثير من الأخبار عن العماد الأصبهاني وصفوان(562هـ/589هـ)، فقد انتقده ابن الخطيب وعاب عليه سطوته من الرحالة والأدباء السابقين وأدرج ذلك في كتابه (البرق الشامي للعماد الأصبهاني) قال ابن الخطيب في الإحاطة (1969:(1) 500): «وقيد رحلته في سفر وصف فيه البلاد ومن لقيه بفصول جلب أكثرها من كلام العماد الأصبهاني وصفوان وغيرهما».

وقد أوضح المقري(986هـ/1041هـ) (1968:(2) 553) سبب تحامل ابن الخطيب على البلوي كونه منحرفاً عنه على حد قوله. والواقع أن ابن الخطيب كان قاسياً على البلوي في اتهامه بالسرقة الأدبية سواء من العماد الأصبهاني أو من صفوان. فالبلوي لم يكن سارقاً في نظر النقد، بل هو مقتبس بعض التعابير الوصفية والأدبية والأنماط التصويرية، وهذا الأمر لم يكن فريداً في عصر البلوي بل نجده يتكرر في مؤلفات المشرقيين وتأثرهم بالنثر والشعر الأندلسيين، إذ لهم طابع خاص يتميزون به. يقول دوكاستري بأن الرحالة في المغرب كانوا يتأثرون بأساليب الكتاب الشرقيين في رحلتهم، وكذلك تأثر أبوالبقاء بكتاب البرق الشامي للعماد الأصبهاني. ويختم دوكاستري ملاحظته قائلاً: «إنا نرى أن الوزير الغرناطي الشهير لم يتخل عن طابع العصر ولم يقو على عدم النيل من شاعر معاصر له» (انظر دوكاستري 1929: مقدمة النفحة المسكية).

هذا وينقل الأستاذ محمد عنان عن بروكلمان صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي) أن البلوي انتفع في كتاب (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) بما كتبه ابن جبير عن المشرق في القرن السادس الهجري (12م).

يعلق محقق الرحلة: «الواقع أن البلوي لم يُشِرْ إلى هذه الرحلة ولم ينقل عنها شيئاً، وإذا كان تشابه الوصف بين الرحالين فذلك يرجع لتشابه الموصوف» (البلوي د.ت: (1) 47-48).

2ـ المدينة المنورة ضمن الرحلة:

من الواضح أن البلوي في أول خروجه من بلده كان متلهفاً لتحقيق الأمنيتين المعبر عنهما وهما تأدية الفريضة وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي طريقة تجشم

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 125 2/8/17 10:06 AM

الصعاب وتحدى الظروف والمثبطات، وقطع المفاوز، فتحقق له ما أثلج صدره، إذ إن أول اتصال بالأماكن والمشاهد المقدسة تم بنزوله بطيبة مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

إن لحظة اللقاء بالمدينة هي لحظة اكتشاف للذات قبل اكتشاف المكان ذاته، أو بعبارة أخرى: إن الإشراف على المدينة ـ والركب يقترب من مشارفها ـ يخلق أقصى مراحل التفاعل الوجداني بين المتلقي والمكان إلى الحد الذي تصبح فيه هذه المقاطع ـ والكثير منها كتب شعراً ـ شواهد رائعة من الأدب الوجداني، تتجاوز مدح المكان أو تقريظه ـ وعلى هذا الأساس يرفض المتلقي إخضاع المكان لتضاريس الجغرافية، مفضلاً العودة إلى تضاريس الروح التي كانت وراء رؤية البصيرة قبل رؤية البصر (مودن 2005: 176)، يقول في وصفه «فشاهدنا نوراً خالف العادة إشراقه، وعز على ضوء النسرين لحاقه عرفته البصائر قبل الإبصار وأنكرته النواظر لعلو جوهر نزره على الأنوار، ففسحت لطرف طرفي في ذلك الأفق مجالاً، وأرسلت معي سجالاً ونظمت ارتجالاً» (البلوي د.ت: 280) (1).

ـ الملمح العمراني:

إن الرحلة كلها يمكن اعتمادها مصدراً تاريخياً، لغناها بالإشارات للمعمار المديني ولاهتمام صاحبها بتسجيل الحدث، وذكر عناصره، فالحرص على ذكر الخبر والحدث باد في ضبط تنقلاته بتدوين تاريخ الانطلاق والانتهاء، ولكن القصد بالتاريخ هنا هو ما حضره البلوي وكان شاهداً عليه، فهو يصف المسجد النبوي الشريف قبل أن يغير معالم الحريق الذي نشب به في عام (886هـ)(انظر السمهودي 1984:(1) 455-456)، ولا يفوته أن يثبت في رحلته نصوص الكتابات والتواريخ المرموقة على الواجهات بالمسجد النبوي، فالبلوي يقدم لنا توصيفاً ودعماً بالوثائق المسموعة والمرئية والمروية عن المسجد النبوي، مبرزاً مختلف جوانبه في الماضي والحاضر، فضلاً على دلالته المستقبلية. والمتتبع للشواهد النبوية التي يوردها البلوي في رحلته، يستطيع وضع يده على هذه السيرة المزدوجة بين سيرة الدعوة وسيرة المكان. هكذا يصبح التفاعل بين هذين المستويين هو الذي يكون وراء بناء المعنى التاريخي لهذا المكان المقدس.

أ ـ المسجد النبوي:

الروضة الشريفة:

تقع الروضة في آخر جهة القبلة ناحية الشرق، بنيت حولها خمسة جدران بخمسة أركان منها أربعة جدران محرفة عن القبلة بحيث يستحيل استقبالها في الصلاة، وذكر البلوي أن بناءها بهذه الطريقة من عمل عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي عندما كان والياً على المدينة مخافة أن يتخذها الناس مصلى، وأن الصفحة الغربية منها صندوق من أبنوس

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 126 2/8/17 10:06 AM

مختـوم بالصنـدل ومطعـم بالفضـة موضـوع قبالـة رأس النبـي صلـى الله عليـه وسـلم طـول خمسـة أشـبار وعرضـه ثلاثـة اشـبار وارتفاعـه أربعـة أشـبار (البلـوي د.ت:(1)285).

وفـي الجهـة القبليـة أمـام وجـه النبـي صلـى الله عليـه وسـلم مسـمار مـن فضـة ،فيقـف النـاس أمامـه للسـلام عليـه صلـى الله عليـه وسـلم. وحـدد البلـوي رأس أبوبكـر الصديـق بأنـه عنـد قـدم النبـي صلـى الله عليـه وسـلم ورأس عمـر بـن الخطـاب ممـا يلـي كتفـي أبـي بكـر رضـي الله عنهمـا، وأمـام هـذه الجهـة نحـو العشـرين قنديـلاً مـن الفضـة المعلقـة اثنـان منهـا مـن الذهـب وتوقـد كل ليلـة مـع غيرهـا مـن الشـمع العظيـم العجيـب.

وأضـاف البلـوي (د.ت:(1) 286) أن مجمـوع مسـافات الروضـة مـن جميـع جهاتهـا مائـة واثنـان وسـبعون شـبراً. وقـد زينـت الروضـة بالرخـام البديـع النحـت وينتهـي فيهـا إلـى نحـو الثلـث وإلـى حيـز الرخـام تنتهـي الأشـبار مـن الديبـاج وهـي لازورديـة اللـون مختمـة بخواتـم بيـض مثمنـة ومربعة.

والجـدار المكـرم قـد عـلاه المسـك والطيـب المتراكـم علـى طـول الأزمنـة ويليـه شـبابيك مـن الخشـب متصلـة بسـقف المسـجد حيـث إن الروضـة لا سـقف لهـا ولكنهـا متصلـة بسـقف المسـجد، وبيـن الروضـة والشـبابيك مـدى واسـع، وللشـبابيك أبـواب مكتوبـة علـى كل بـاب منهـا مـا نصـه «بسـم الله الرحمـن الرحيـم خـدم بهـذه الـدار يزينـة للحـرم الشـريف مولانـا السـلطان الملـك الظاهـر ركـن الدنيـا والديـن أبـي الفتـح بيبـرس الصالحـي، قسـيم أميـر المؤمنيـن فـي سـنة ثمـان وسـتين وسـتمائة» (البلـوي د.ت:(1) 286).

يلاحـظ أن تاريـخ النقـش يزيـد عـن السـنة التـي حـج فيهـا الملـك الظاهـر سـنة 667هـ/ 1268م (ابـن كثيـر 1981:(13) 256-257 وابـن دقمـاق 1985:(2) 75)، لعـل هـذا يرجـع إلـى أن القيـام بالنقـش إنمـا تـم فـي سـنة 668هـ/ 1269م، خاصـة وأن الملـك الظاهـر قـد أرسـل مـن مصـر فـي رجـب سـنة 668هـ/ 1269م درابزينـات للحجـرة النبويـة، وأمـر أن تقـام حـول القبـر صيانـة وعمـل أبوابـاً لا تفتـح وتقفـل فركـب ذلـك عليهـا.

وقـد سـجل البلـوي نقشـاً وجـد فـي سـقف الروضـة الشـريفة، بـدأ بقصيـدة شـعرية فريـدة كتبـت بالخـط المذهـب، وانتهـى بسـبغ وابـل الألقـاب علـى الملـك الناصـر محمـد بـن قـلاوون. كمـا يشـير النقـش إلـى عنايـة واهتمـام ملـوك المسـلمين بالتلقـب بلقـب خـادم الحرميـن الشـريفين ونـص النقـش «اللهـم أدم العـز والتمكيـن والنصـر والفتـح المبيـن لعبـدك المسـكين، الـذي أوليتـه أمـور المسـلمين واخترتـه علـى كثيـر مـن العالميـن السـلطان الملـك الناصـر، ناصـر الديـن والدنيـا، وأبـو المعالـي محمـد قسـم أميـر المؤمنيـن سـلطان الإسـلام والمسـلمين، قاتـل الكفـرة والمشـركين، قاهـر الفجـرة والمتمرديـن، حامـي حـوزة الديـن، سـلطان الديـار المصريـة والعراقيـة والبـلاد الشـامية، ملـك البحريـن خـادم الحرميـن الشـريفين ولـد السـلطان المرحـوم الملـك المنصـور، سـيف الديـن والدنيـا قـلاوون الصالحـي أدام الله أيامـه ونشـر فـي الخافقيـن

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 127 2/8/17 10:06 AM

رايتـه وأعلامـه وجعل السعد والإقبـال حيثمـا توجـه أمامـه، وكان ابتـداء العمل فـي شـهر ربيـع الأول، وانتهـاؤه فـي جمـادى مسـتهل الأخيـر سـنة إحـدى وسـبعمائة للهجـرة النبويـة» (البلـوي د.ت:(1): 283-285).

المنبر الكريم:

يقـع المنبـر المبـارك علـى يميـن الروضـة بينهمـا اثنتـان وأربعـون خطـوة ومـن جهـة القبلـة عمـود يقـال إن بـه بقيـة الجـذع الـذي حـن للنبـي صلـى الله عليـه وسـلم، وشـاهد البلـوي (د.ت:(1) 286-287) قطعـة معـه فـي وسـط العمـود ظاهـرة، يقبلهـا النـاس ويتبركـون بلمسـها ومسـح خدودهم فيهـا. والمنبـر الكريـم مغطـى بخشـب الأبنـوس ونفيـس الصنـدل بأحكـم تصنيـف وأبـدع تركيـب (انظـر العبـدري1968: 218).

أمـا طـول المسـجد النبـوي «فمائـة وتسـعون خطـوة، وعرضـه مائـة وسـت وعشـرون خطـوة، وعـدد سـواريه ثمانمائـة، وتحفـه مـن جهاتـه الأربـع بلاطـات مسـتديرة بـه ووسـطه كلـه مفـروش بالحصـا والرمـل، وفـي صحنـه قبـة بيضـاء كبيـرة أمامهـا خمـس عشـرة نخلـة، نصـف جـدار القبـة الأسـفل رخـام مجـزع متعـدد الألـوان والنصـف الأعلـى منـه مغطـى كلـه بالذهـب، قـد أنتـج الصنـاع فيـه نتائـج غريبـة مـن الصنعـة فيهـا تصاويـر أشـجار مختلفـات الصنعـة، ماثـلات الأغصـان فيـه بثمرهـا، والمسـجد المكـرم كلـه علـى تلـك الصنعـة، لكـن الصنعـة فـي جـدار القبلـة أحفـل» (البلـوي د.ت:(1) 288).

أبواب المسجد النبوي:

وللمسـجد تسـعة عشـر بابـاً لـم يبـق منهـا مفتوحـاً سـوى أربعـة أبـواب كبـار (انظـر أبـو شـامة د.ت:(2) 35-37) فـي الغـرب منهـا اثنـان يعـرف أحدهمـا ببـاب الرحمـة والثانـي ببـاب الخشـية، وفـي الشـرق اثنـان يعـرف أحدهمـا بـاب جبريـل والثانـي بـاب الرجـاء، ويقابـل بـاب الرحمـة مدرسـة لـم يـر أحسـن بنـاء منهـا ولا أبـدع صنعـة، ويقابـل بـاب جبريـل دار عثمـان بـن عفـان رضـي الله عنـه وهـي التـي استشـهد بهـا (انظـر البلـوي د.ت:(1) 287 وابـن جبيـر د.ت: 148).

ب ـ مسجد قباء:

وصفـه البلـوي (د.ت:(1) 288) بأنـه مسـجد حسـن عـدل التربيـع مسـتوى الطـول والعـرض لـه مئذنـة طويلـة بيضـاء تظهـر مـن بعـد، وفـي وسـطه روضـة صغيـرة هـي مـكان مبـرك الناقـة بالنبـي صلـى الله عليـه وسـلم، ويحـرص النـاس علـى الصـلاة فيهـا. كمـا يوجـد فـي صحنـه ممـا يلـي القبلـة شـبه محـراب علـى مصطبـة هـو موضـع ركـوع النبـي صلـى الله عليـه وسـلم، وسـجل البلـوي نقشـاً وجـد بأعلـى محـراب المسـجد يشـير إلـى تاريـخ تجديـده ونصـه: «بسـم الله الرحمـن الرحيـم لَمَسْـجِدٌ أُسِّـسَ عَلَـى التَّقْـوَى مِـنْ أَوَّلِ يَـوْمٍ أَحَـقُّ أَن تَقُـومَ فِيـهِ، فِيـهِ رِجَـالٌ يُحِبُّـونَ أَن يَتَطَهَّـرُواْ وَاللّهُ يُحِـبُّ الْمُطَّهِّرِيـنَ (سـورة التوبـة:9/108) هـذا مقـام النبـي صلـى الله عليـه وسـلم

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 128 2/8/17 10:06 AM

جدد هذا المسجد في تاريخ سنة إحدى وسبعين وستمائة» (البلوي د.ت:(1) 288). ولم يحدد النقش شخصية متولي التجديد، أفاد السمهودي (1984:(3) 807-810) أن المسجد قد جدد مرتين إحداهما سنة 555هـ/1160م والأخرى سنة 671هـ/1273م، وهي المرة التي أشار إليها البلوي، إلى جانب ذكره لوجود المحاريب في قبلته، أما مكان مبرك الناقة بالرسول صلى الله عليه وسلم فلم يفصل السمهودي فيه برأي قاطع (انظر نواب 1996: 384).

وفي معرض حديثة ذكر البلوي (د.ت:(1) 288) أنه في «قبلة المسجد» دار لبني النجار، وهي دار أبي أيوب الأنصاري، ويلي دار بني النجار دار عائشة وبإزائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبي بكر رضي الله عنهم، وأمام باب المسجد بئر ذات ماء عذب يحمل ماؤها إلى المدينة. يلاحظ أن ما جاء به من وصف للدور والبئر نقل حرفياً عن ابن جبير (د.ت:150)، لذا لم يظل الوضع كما كان سابقاً، وعليه فهو يتطابق مع ابن جبير في إغفال وصف بئر بضاعة، والتي جاء ذكرها وما ورد فيها من أثر للنبي صلى الله عليه وسلم لدى بعض مؤرخي المدينة (السمهودي1984:(3) 956-959).

أما المساجد بالمدينة المنورة : مسجد الفتح، ومسجد علي رضي الله عنه، ومسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه ـ فقد اكتفى بذكرها دون وصفها (البلوي د.ت:(1) 280)، ربما يرجع السبب في ذلك أنها كانت خراباً في هذه المدة التاريخية، إلا أن آثار بنائها ما زالت باقية، إضافة إلى ما تناقلته الناس بالتواتر حول صحة أخبار نسبتها إلى أصحابها.

ج ـ القبور (المشاهد المكرمة):

فأول ما يذكر من ذلك ـ قبر حمزة رضي الله عنه، وهو بقبلي جبل أحد، وقد بُني عليه مسجد، وتنتشر قبور الشهداء بجواره (البلوي د.ت:(1) 288).

وبقيع الغرقد شرقي المدينة، تخرج إليه من باب يعرف بباب البقيع، أحد أبواب المدينة الأربعة، وبعدها يستعرض لنا المشاهد المكرمة في المقبرة على حسب ترتيبها عند الخروج من الباب المذكور، فقد أشار البلوي إلى وجود مشهد صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم أم الزبير بن العوام رضي الله عنهما مع يسار الخارج للبقيع أمام قبرها قبر مالك بن أنس رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء، وأمام قبر السلالة الطاهرة النبوية إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء وبقربه قبر عقيل بن أبي طالب وعبدالله بن أبي جعفر الطيار رضي الله عنهم. وبجوارهم روضة فيها قبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبجانب الروضة روضة صغيرة فيها ثلاث من بنات النبي صلى الله عليه وسلم، وتليها روضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن علي رضي الله عنهما وعليها قبة عالية وموقع هذه الروضة على يمين الخارج من باب البقيع

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 129 2/8/17 10:06 AM

وموضع قبريهما متسع، وقد دفن الحسن قرب العباس رضي الله عنهما، أما صفة القبرين فإنهما مرتفعان ويغطي كلا منهما ألواح مرصعة بصفائح الصفر تمسكها بعض المسامير على أبدع صفة وأجمل منظر وينطبق الأمر كذلك على قبر إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم. وفي آخر البقيع قبر عثمان بن عفان الشهيد ذي النورين رضي الله عنه، وعلى قبره قبة كبيرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعلى القبر مكتوب «ما ضم قبر أم أحد كفاطمة بنت أسد» رضي الله عنهما وعن بنيها (البلوي د.ت:(1) 289).

واتفق البلوي مع الرحالين (انظر ابن جبير د.ت:149 والعبدري 1968: 203 وابن بطوطة 1997:(1) 360-361 وابن رشيد 1988:(5) 19) حول مواضع قبور الصحابة رضي الله عنهم، إلا أن ابن جبير زاد عليه بتعيين قبر عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب، والبيت الذي ينسب لفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ويعرف ببيت الحزن.

هذا ونجد أن البلوي لفت انتباهه كثرة القباب والمباني، وأشهر القباب وأعلاها وأكبرها قبة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويلاحظ هنا اختلاف عما أورده ابن جبير (د.ت:149) بذكر أن القبة صغيرة مختصرة. بيدو أن القبة قد طرأ عليها التجديد حتى بدت بهذا المنظر الذي وصفه البلوي.

د ـ الأسوار والتحصينات والعيون:

لم يكن البلوي ليتجاهل موقع المدينة وبالأخص إذا كان هذا الموقع يكتسي أهمية دينية وله مكانة جغرافية متميزة، ويقف إزاءها متأملاً ومعجباً بها، وإذا كان البلوي يركز على تحديد موقع المدينة فلأنه ركن من أركان بنائها وإنشائها، وهو ما ينبغي مراعاته كما يقول ابن خلدون (1979: 851): «لدفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها» و «أن تكون في وضع متمنع من الأمكنة». وهكذا فإن أول ما يثير اهتمام البلوي عندما يقف على مشارف المدينة المنورة هو أسوارها وتحصيناتها. أشار البلوي (د.ت :(1) 290) إلى وجود سورين متقابلين اشتملا على أربعة أبواب مصنوعة من الحديد يسمى أحدها باب الحديد ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة ثم باب البقيع المفضي إلى البقيع شرقي المدينة. ولم يفُته بأن يسجل موقع الخندق الشهير الذكر الذي صنعه النبي صلى الله عليه وسلم عند تحزب الأحزاب الموجودة آثاره بالمدينة بالجهة الغربية منها.

أما العين المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم كما يشير البلوي (د.ت:(1) 290) من المواقع الهامة لبناء المدينة، ونظراً لأهميتها وما تضفي على المدينة من أجواء طبيعية جذابة، فهو بذلك يصفها بـ « العين المباركة تعم أهل الأرض فضلاً عن أهل المدينة».

المستفاد مما سبق أن المدينة كان عمرانها متقناً حسناً نستشف حسنها وترتيب بنائها من

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 130 2/8/17 10:06 AM

وصف البلوي - «والمدينة المكرمة متسعة الأرجاء مشرقة الأنحاء طيبة الهواء كثيرة النخيل والماء، ممتدة التخطيط والاستواء حسنة الترتيب والبناء» (البلوي د.ت:(1) 290).

أغلب الظن أن المدينة المنورة نعمت باستقرار سياسي وازدهار اقتصادي في عهد المماليك في مطلع القرن الثامن الهجري/ 14م، فلقد تنافس السلاطين والأمراء في الإنشاء والتعمير، وبالغوا في ذلك أحياناً ليبقى لهم الذكر عبر القرون. ويمكننا أن نرجع هذه الظاهرة إلى أن المال كان وفيراً في عهد دولة المماليك (الناصر محمد بن قلاوون نموذجاً).

بالإضافة إلى أنهم أرادوا التقرب إلى الله عز وجل بغية الأجر والمثوبة، والظهور في مظهر حماة الدين والمدافعين عنه، فضلاً عن أنهم أرادوا تثبيت سلطانهم في الحجاز بالتردد عليه والنظر في أحواله والتحبب إلى أهله بالصدقات، والاهتمام بهم حتى لا يقدموا أحدا عليهم في الدعاء والخطبة، من أجل ذلك كانوا يولون اهتماما كبيراً بالحرمين الشريفين.

الملمح العلمي:

من بين القضايا التي كانت تثير انتباه البلوي ويقف عندها مطولاً ومفصلاً هو كل ما يتعلق بالحركة العلمية والتعليمية، فنراه يركز اهتمامه على العلماء والقضاة والمدارس، وهذا الموضوع يشكل بدوره في الرحلة مادة مهمة تطلعنا على مستوى الحركة العلمية في المدينة المنورة، وخصوصيتها، وما سجله في هذا الإطار يعتبر من الوثائق التاريخية التي من الصعب أن يستغني عنها كل من يريد أن يؤرخ للحياة التعليمية والثقافية خلال القرن الثامن الهجري/ 14م.

وكان البلوي، يضيف إلى النسك والزيارة العناية بالأخذ دارية أو رواية عن مشايخ الحرم النبوي الشريف، ولهذا يطفح عدد من النصوص الرحلية بلوائح لأعلام هذه الجهة: المقيمين أو المجاورين، على أن المؤلف يسجل لشيوخه تراجم قد تشتمل على معلومات تخلو منها المعاجم الموضوعية (المنوني 1979:(2) 300).

ويختار البلوي شيوخه الذين أخذ عنهم العلم أو الرواية بعناية كبيرة، فعلى الرغم من كثرة من لقيه في رحلته من رجال العلم والرواية، فإنه لا يختار منهم للجلوس إليه أو الأخذ عنه أو ملازمة حلقته، إلا من كان له حضور قوي في علمه وروايته، أو انفراد متميز فيها أو منهج درسه. ويمكن أن نتمثل هذه العلامات الفهرسية الواردة في رحلة البلوي في النقاط الآتية:

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 131 2/8/17 10:06 AM

1 ـ كبار العلماء:

أبو محمد بن أسعد اليافعي (ت 788هـ/1366م):

عفيف الدين أبومحمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي، اليمني الشافعي ـ نشأ محباً للعلم فبعثه أبوه إلى عدن فأخذ عن علمائها وحفظ القرآن الكريم وحج صغيراً، وعاد إلى بلده وآثر الخلوة وساح في الأرض متنقلاً بين الشام والقدس والخليل ومصر والصعيد مواظباً على الحج، وجاور بالمدينة ثم استوطن مكة وتزوج بها. شاع ذكره الجميل وتصدر للتدريس والتأليف، إلا أن معظم مؤلفاته امتازت بقصد مواضيعها مع عظم فائدتها، وعرف بتواضعه وترفعه عن أرباب الدنيا، كثير الصدقة مع قلة ذات اليد. ولد سنة 698هـ/1298م، وتوفي في جمادى الآخرة سنة 768هـ/1366م بمكة المكرمة (انظر الحسيني د.ت:152 والفاسي 1985:(5) 104-110 وابن العماد د.ت:(6) 210-212).

لقيه البلوي بالحرم النبوي الشريف وأسبغ عليه الصفات الجليلة فقال في وصفه:

«أجل العلماء العابدين وأفضل الأولياء الزاهدين وأحفل الأدباء البلغاء الماجدين، فله من الحجج ما ينيف على الخمسين» (البلوي د.ت:(1) 291-292).

جمال الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد العبادي (ت741هـ/ 1243م):

محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى بن عباس بن يوسف بن عثمان جمال الدين أبوعبدالله الأنصاري الخزرجي العبادي السعدي الشافعي. رئيس المؤذنين بالحرم النبوي الشريف ونائب القاضي والخطيب والإمام في المدينة، كان عالماً أخذ عن جمع غفير من العلماء. منهم أبو اليمن ابن عساكر، وجلس للتدريس في الحرمين الشريفين، ألف تاريخاً للمدينة المنورة سماه «التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة».

ولد سنة 671هـ/ 1272م أو 673هـ/ 1273م، وتوفي في السابع من ربيع الآخر سنة 741هـ/ 1243م (انظر الحسيني د.ت: 110 والسخاوي د.ت: (3) 466).

أشار البلوي (د.ت:(1) 293-294) إلى عظم قدره مادحاً إياه بالشيخ العالم الرئيس الصالح القائم بتدريس الحديث، ولعل نعته إياه بالرئيس إشارة إلى شغله منصب رئيس المؤذنين آنذاك.

2 ـ أهم المؤلفات والإجازات العلمية:

واستكمالاً لهذه الاستفادة العلمية التي يحصلها البلوي من شيوخه، فإنه يستوفي ذلك بإيراد نصوص الإجازات التي ظفر بها من هؤلاء الشيوخ، يبيحون له الأخذ والتحمل عنهم، ويعطون له الشرعية في أن يربط اتصاله بهم ليجري إليهم رواياته وأسانيده، والملاحظ أنه قد اتسعت المساحة في تاج المفرق لتستوعب هذا الصنف من النصوص الذي تكتمل

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 132 2/8/17 10:06 AM

بذكره مراحل العملية التعليمية عند شيوخ العلماء.

ومن نصوص الإجازات التي أوردها في الرحلة ـ نص إجازة الشيخ جمال الدين العبادي وهي في علم الحديث «الأربعين حديثاً» التي خرجها الإمام الحافظ علم الدين البرزالي الدمشقي من كتاب الزيارة لأبي اليمن بن عساكر (البلوي د.ت:(1) 294). ومنها إجازة الشيخ عفيف الدين أبومحمد اليافعي، وقد أجازه بعد أن سمع من لفظه كثيراً من تأليفه الذي سماه كتاب «الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز، وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين» (البلوي د.ت:(1) 292-293).

ومن جهة أخرى كان للبلوي شغف بالبحث عن الذخائر ونوادر المؤلفات، ونماذج هذه الظاهرة كثيرة. فالبلوي يتحدث (د.ت:(1) 287) عن خزانتين كبيرتين بالمسجد النبوي: للكتب والمصاحف الموقوفة. وأغلب الظن أن الكثير من هذه الكتب قد تلف وضاع خاصة أن المسجد النبوي تعرض لحريقين تسببا في إتلاف العديد من الأشياء القيمة (انظر السمهودي 1984:(2)598-600 والسخاوي د.ت :(3)231).

3 ـ نصوص أدبية نادرة:

برز الجانب الأدبي في الرحلة ، من خلال النظم الشعري الذي تفجر، في المتن الرحلي،بواسطة قرائح فطرية، وإحساسات عفوية فجرها المكان الطاهر بكل مكوناته، فلم يكن نظم هؤلاء الرحالين صادرا عن حرفية الشاعر المحترف، بل كان في معظمه شعرا أتى عفو الخاطر مما يشفع لناظمه جانبه النظمي المسيطر على جانبه الشعري، دونأ يمنع ذلك من وجود العديد من الإشراقات الشعرية الرائعة (مودن2005: 190).

هذا وقد تضمنت الرحلة نصوصاً أدبية نادرة في غاية الأهمية، منها:

قصيدة من ثلاثين بيتاً نظمها الرحالة الشاعر البلوي تحمل مشاعر الشوق واللهفة لزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل إن لحظات الخشوع تنتاب الرحالة وهو على مشارف هذا المكان الطاهر، هذا مطلعها (البلوي د.ت:(1) 280-282):

الله أكبر حبذا أكباره	لاح الهدى وبدت لنا أنواره
لاحت معالم يثرب وربوعها	مثوى الرسول وداره وقراره
هذا النخيل وطيبه ومحمد	خير الورى طرا وها أنا جاره

قصيدة في آداب الزيارة إذا أشرف الزائر على المدينة المنورة أو على البيت، من نظم الأديب الجوهري، هذا مطلعها (البلوي د.ت:(1) 282):

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 133 2/8/17 10:06 AM

رفع الحجاب لنا فلاح لناظري — قمر تقطع دونه الأوهام

وإذا المطى بنا بلغن محمدا — فظهورهن على الرحال حرام

قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مكتوبة بالخط المذهب في سقف المسجد النبوي الشريف، شهد البلوي لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة، هذا مطلعها (البلوي د.ت:(1) 283-284):

سلام كنشر الورد من مسقط الندا — عليك رسول الله يا منزل الهدى

ويا مهبط الأملاك والوحي لم تزل — أنيساً بزوراء الرسول ممجدا

قصيدة من نظم شيخ الدين الأصبهاني في استدعاء الإجازة من شيخه أبي محمد بن أسعد اليافعي، هذا مطلعها (البلوي د.ت:(1) 293) :

وقد أوطأت نعلي كل أرض — وقد أتعبت نفسي باغتراب

وقد طوفت في الآفاق حتى — رضيت من الغنيمة بالإياب

قصيدة في مغادرة رحاب المدينة المنورة، من نظم الرحالة الشاعر البلوي، تميزت بمواقف مؤثرة توزعت صورها في تدافع الأحاسيس الصادقة المشوبة بالحنين إلى هذه الأمكنة الطاهرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ هذا مطلعها (البلوي د.ت:(1) 295) :

لله أي هوى برامة — حيث القلوب المستهامة

لم يبق قلب في الحمى — إلا وقد أعطى زمامه

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 134 2/8/17 10:06 AM

3- استنتاجات وخلاصات:

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى ما يأتي:

- تعتبر الرحلة إضافة مهمة للتراث الرحلي المغربي في وجهته الحجازية، فهذا النص يبرز بعض سمات المنهج المتبع في الرحلة وهو المستند إلى التحري، والإحاطة والشمول لكونه لا يحكي الأخبار والحكايات إلا بعد الوقوف عليها والتأكد من عناصرها الزمنية والمكانية والبشرية، ذلك أن مرجعيته في مادة معلوماته تنبني على المشاهدة والملاحظة بمحاورة الآثار وقراءة النقوش واللوحات المخلدة للتغييرات الطارئة. والاستئناس من لهم علم بالحدث والمكان، وبهذا يختلف عن غيره من الذين يكتفون أحياناً بالنقل عن غيرهم.
- وللرحلة أهمية خاصة فيما احتضنته من (نقوش بصرية) كمصدر للتأكيد على جديتها وصدق أخبارها، وهو ما يتعلق بالنقوش التي كان يقف الرحالة عليها مكتوبة على لوحة خشبية أو قطع من حجر في المشاهد الكريمة، وقد أمست إلينا في وقتنا الحاضر بمنزلة وثيقة تاريخية، لا سيما بعض تلك النقوش التي ما يزال معروفاً للعيان إلى يومنا هذا.
- والرحلة مصدر مهم لمعرفة الحياة العلمية في هذه المدة المدروسة، ففيها ذكر لمجالس الدرس والتحصيل، والكتب المعتمدة والإجازات العلمية. إضافة إلى كونها سجلا ضم قوائم لأسماء أعلام الفقهاء المجاورين. الذين تخصصوا في أفانين العلوم مثل «علم الحديث والفقه والأدب» مما يجعل لهذه التراجم طابعاً معيناً وخصوصية منفردة.
- تعتبر الرحلة مصدراً لكثير من النصوص الأدبية شعراً ونثراً، فلقد انفردت برواية كثير من النصوص، فالبلوي أدرج في رحلته كثيراً من قصائدهم الشعرية مما له علاقة بظروف الرحلة، مما جعل الرحلة ذات أهمية خاصة من الوجهة الأدبية.
- إن نص الرحلة جاء مقتضباً، حيث كان صاحبه شحيحاً في تصوير الأحداث والوقائع، والحديث عن المجالات التي تخص الجانب الاجتماعي والسياسي، وإعطائها حقها من العناية والاهتمام، مما جعل النص صغيراً بالمقارنة مع نصوص الرحلات الأخرى (رحلة ابن بطوطة نموذجاً).
- وأخيراً فإن الرحلة تكشف عن جانب التطور الحضاري الذي عاشته المدينة المنورة في العصر المملوكي الذي يمثله الرحالة خالد البلوي، فالمدينة قد نعمت ببعض المشاريع العمرانية التي توضح حرص واهتمام المماليك من ملوك وأمراء بالبناء والتعمير بها طلباً وسعياً وراء الأجر والثواب من الله عز وجل.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 135 2/8/17 10:06 AM

قائمة المصادر والمراجع :

البرزنجي،جعفر بن السيد اسماعيل.(1914).نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، القاهرة، دار الكتب العلمية.

ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله اللواتي. (1997). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، الرباط،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

البلوي، خالد بن عيسى.(د.ت). تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة.

التجيبي ،القاسم بن يوسف السبتي.(1975). مستفاد الرحلة والاغتراب،تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا-تونس، الدار العربية.

التمبكتي، أحمد بابا.(1351). نيل الإبتهاج بتطريز الديباج،ط1 الفحامين مصر، طبعة عباس بن عبد السلام بن شعرون.

التمجروتي، علي بن محمد الجزولي الدرعي.(1929).النفحة المسكية في السفارة التركية، ترجمة دوكاستري B,Decastre، باريس.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن احمد الكناني البلنسي.(د.ت). تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار(رحلة ابن جبير)،بيروت،دار الشرق العربي.

الحسيني،شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي. (د.ت).ذيل تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ،بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ابن الخطيب،لسان الدين.(1399/1969). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد بن عبدالله عنان، الشركة المصرية، دار المعارف.

ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. (1979).تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر.

ابن دقماق،ابراهيم بن محمد.(1985). الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين،ط1عالم الكتب،ج2،بيروت.

ابن رشيد، أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري.(1988). ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة،تحقيق محمد الحبيب خوجة،بيروت،دار الغرب الإسلامي، ج5

الزركشي ،أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ.(1966).تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ناضور، تونس، المكتبة العتيقة.

الزركلي،خير الدين.(1986). الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت،دار العلم للملايين.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن.(د.ت). التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة،عني بطبعه اسعد طرا بزوني الحسيني ،ج3

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد.(1984).وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين، بيروت، دار إحياء التراث العربي ،ج1

أبوشامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي. (د.ت). الروضتين في أخبار الدولتين،بيروت،دار الجيل.

العبدري،ابوعبد الله محمد بن العبدري الحيحي.(1968). الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 136 2/8/17 10:06 AM

ابن العماد،أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي.(د.ت).شذرات الذهب في أخبار من ذهب،دار الفكر،ج6

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني.(1985/1986). العقد الثمين في أخبار البلد الأمين،تحقيق محمد حامد الفقي وفؤاد السيد، ج5

ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسي. (مخطوط خزانة الرباط رقم 1242). جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس.

ابن القاضي،أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسي.(1391/ 1971). درة الحجال،، تونس ،دار التراث، المكتبة العينية.

ابن كثير،الحافظ عماد الدين أبو الفداء.(1981). البداية والنهاية،مكتبة المعارف،ط4، ج13.

المقري،أحمد بن محمد المقري التلمساني.(1388/ 1968).نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

المقريزى،تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي.(1996). السلوك لمعرفة دول الملوك, القاهرة ،دار الكتب.

الناصري،أبو العباس أحمد بن خالد.(1956). الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى،تحقيق جعفر الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب.

إبراهيم ،رفعت باشا.(د.ت). مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية،بيروت،دار المعرفة.

الجاسر ،حمد.(1972). رسائل في تاريخ المدينة، الرياض، دار اليمامة.

الجحمة، نواف.(2003).صورة ديوان الجمرك المصري من خلال الرحلات المغربية والأندلسية من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12- 14م)، بحث مقدم إلى مؤتمر الرحلة بين الشرق والغرب: اتصال أم انفصال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس2003.

حافظ ،علي.(د.ت). فصول من تاريخ المدينة المنورة، جدة، شركة المدينة.

الحجي، حياة ناصر. (1984). السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، الكويت، مكتبة الفلاح.

زغلول،سعد.(1965).تاريخ المغرب العربي، القاهرة، دار المعارف.

المنوني ،محمد.(1979).الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، جامعة الرياض،ج2

مودن، عبدالرحيم.(2005).المدينة المنورة في النص الرحلي:مستوياته وأبعاده ،بحث مقدم إلى مؤتمر الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين ـ اكتشاف الذات والآخر، دورة الجزائر2005 ، أبوظبي ،دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1.

ابن النجار،محمد بن محمود.(1981). أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة، تحقيق صالح محمد جمال، ط3،مكتبة الثقافة.

نواب، عواطف.(1996).الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تأريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين،الرياض، مكتبة فهد الوطنية.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 137 2/8/17 10:06 AM

Description of Medina at the Beginning of the Eighth Century/ Fourteenth Century AD) in Balawi's trip

Nawaf Abdul Aziz Aljahmah

College of Basic Education - Public Authority for Applied Education and Training
Kuwait - Kuwait

Abstract:

Medina has attracted travelers from the Maghreb and Andalusia who have described it in positive terms ranging from love and admiration to reverence and sanctification. This might explain the curious fact that all these travelers' accounts seem to be emulating each other. One of these travelogues is the trip made by Abu Al-Baqa' Abu al- Balawi to perform the Haj, in AD 1336/H3737, which exists in a two-volume book. The essay will cover the particulars of the trip, the author's description of Medina, and finally my own conclusions about the trip.

Key words: Travelogues, Maghreb, Abu al-Balawi, Medina

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 138 2/8/17 10:06 AM